المحاضرة الخامسة:

قضايا النقد عند الفلاسفة:

مهدت عوامل حضارية كثيرة أولها التوسع الجغرافي للمسلمين، واختلاطهم بباقي الأجناس والأمم لأن يتأثر العرب بمن سبقهم من فلاسفة اليونان، وفي مقدمتهم أرسطو وأفلاطون، حيث يبدو هذا التأثر واضحا خاصة على الفلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد.

قضايا النقد عند الفلاسفة المسلمين:

عالج الفلاسفة المسلمون قضايا كثيرة متعلقة بالشعر وبالخطابة ومنها: ماهية الشعر، وقضية المحاكاة والتخييل، وأوزان الشعر وأغراضه، والصدق والكذب، والمجاز وغيرها، وفيما يلي نماذج عن أبرزها من خلال أعلام النقد الفلسفي:

أولا: الفارابي أبو نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ، من أكبر فلاسفة المسلمين، ولد عام (260 للهجرة)، انتقل إلى مدينة بغداد وقد ألّف أكثر كتبه فيها، ثم مصر والشّام. توفي في دمشق في عام (339 للهجرة). درس الفلسفة والآداب والطب، وأتقن من اللغات: التّركيّة

والفارسيّة واليونانيّة. كان تلميذ يوحنّا بن حيلان في الطب، وأبي بشر متّى بن يونس في الفلسفة والمنطق، وأبي بكر بن السّراج في علم النّحو والمنطق.

تميّز الفارابي بشكلٍ خاصٍّ في شرح مؤلفات الفيلسوف أرسطو حتى أُطلق عليه لقب (المعلّم الثّاني)، كما وضع العديد من المؤلفات في مختلف المجالات منها: شرح العبارة لأرسطو، شرح كتاب المقولات لأرسطو، الألفاظ المستعملة في المنطق، شرائط اليقين، كتاب الشّعر، كتاب الخطابة، رسالة في قوانين صناعة الشّعر، إحصاء العلوم، كتاب الحروف. تأثر الفارابي بالثقافة اليونانية وبأرسطو واضح، يدل عليه ما ذكره حول مفهوم الشعر وقضاياه، فقد ترك بصمة واضحة فيما يخص تعامله مع الترجمات العربية التي سبقته لفن الشعر الأرسطي، وأول ما يلحظه قارؤه، هو ابتعاده عن (متى بن يونس) في تسميته للتراجيديا والكوميديا بالمدح والهجاء ، لأنه سماها (طراغوذيا) و(قوموذيا)، واعتماده على مقولات أرسطو في حديثه عن الشعر مستبدلا مصطلح (الشعر) بـ (الأقاويل الشعرية)، وهي: "التي من شأنها أن تؤلف منها أشياء محاكية للأمر الذي فيه القول وتعتمد على الكذب لأنها تهدف إلى محاكاة الشيء على غير ما هو عليه في الواقع بل على ما يريد الشاعر".

صنف المحاكاة إلى نوعين: فـ" قد تكون بفعل. وقد تكون بقول، فالذي بفعل ضربان: أحدهما أن يحاكي الإنسان بيده شيئا ما، مثل ما يعمل تمثالا لا يحاكي به إنسانا بعينه، أو شيئا غير ذلك، أو يفعل فعلا يحاكي به إنسانا ما أو غير ذلك. والمحاكاة بقول: هو أن

يؤلف القول الذي يصنعه أو يخاطب به من أمور تحاكي الشيء الذي فيه القول، وهو أن يجعل القول دالا على أمور تحاكي ذلك الشيء".

جعل الفارابي الفنون كلها تلتقي حول مبدأ المحاكاة ، وتختلف مع بعضها في وسائل وأدوات هذه المحاكاة ، وهي ليست استنساخا للواقع ، أو نقلا لمعطياته ، إنما هي خلق وتخييل وتشكيل لأن غرض المبدع هو : "أن يوقع في ذهن السامعين والمتلقين المحاكي للشيء بدلا من الشيء نفسه". وهي فعالية مشتركة بين كل الفنون الممكنة كما يتضح من قوله: "فإن محاكاة الأمور قد تكون بفعل. وقد تكون بقول، فالذي بفعل ضربان: أحدهما أن يحاكي الإنسان بيده شيئا ما ، مثل ما يعمل تمثالا لا يحاكي به إنسانا بعينه، أو شيئا غير ذلك، أو يفعل فعلا يحاكي به إنسانا ما أو غير ذلك. والمحاكاة بقوله : هو أن يؤلف القول الذي يصنعه أو يخاطب به من أمور تحاكي الشيء الذي فيه القول، وهو أن يجعل القول دالا على أمور تحاكي ذلك الشيء".

فالفنون كلها تلتقي حول مبدأ المحاكاة، وتختلف بعد ذلك في وسائلها وأدواتها.

ثانيا: ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا. ولد عام (370هـ). تلقى تعليمه الأول على يد أبيه. حفظ القرآن والشعر، ومال لتعلم المنطق وعلوم الطب والشريعة. توفي سنة (427هـ). لُقِّب بالشيخ الرئيس وبالمعلم الثالث.

وصف الشعر بأنه كلام مُخَيِّل ، فهو "كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية عند العرب مقفاة ومعنى كونها موزونة أن يكون لها إيقاع ومعنى كونها متساوية هو أن يكون كل قول منها مؤلفا من أقوال إيقاعية ومعنى كونها مقفاة هو أن يكون الحرف الذي يختم به كل قول منها واحدا وإنما ينظر المنطقي في الشعر من حيث هو مخيل". كما ركز على التخييل ودوره في المتلقي، وفي ذلك قال: "والمخيِّل هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط عن أمور، وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعالاً نفسانياً غير فكري، سواء كان المقول مصدَّقاً به أو غير مصدق. فإن كونه مصدقاً به غير كونه مخيلاً أو غير مخيل: فإنه قد يصدق بقول من الأقوال ولا ينفعل عنه، فإن قيل مرة أخرى وعلى هيئة أخرى انفعلت النفس عنه طاعة للتخييل لا للتصديق فكثيراً ما يؤثر الانفصال ولا يحدث تصديقاً وربما كان المتيقن كذبه مخيلاً".

وعن طريق التخييل استطاع ابن سينا التفريق بين الشعر وغيره من الفنون كالنثر والخطابة قائلا: "الشعر يستعمل التخييل والخطابة تستعمل التصديق".

وأما وسيلته فهي المحاكاة، وهي: "إيراد مثل الشيء، وليس هو هو، فذلك كما يحاكى الحيوان الطبيعي بصورة ، هي في الظاهر كالطبيعي". وذلك أكثر تأثيرا في النفس، "وإذا كانت محاكاة الشيء بغيره تحرك النفس وهو صادق ، بل ذلك أوجب – من الناحية المنطقية – ولكن الناس أطوع للتخييل منهم للتصديق ، وكثير منهم إذا سمع التصديقات استكره

وهرب منها . وللمحاكاة شيء من التعجيب ليس للصدق، لأن الصدق المشهور كالمفروغ منه ، ولا طراوة له ، والصدق المجهول غير ملتفت إليه . والقول الصادق إذا حرف عن العادة ، وألحق به شيء تستأنس به النفس، فربما أفاد التصديق والتخييل معا، شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق والشعور به، والتخييل إذعان ، والتصديق إذعان، لكن التخييل إذعان للتعجب والالتذاذ بنفس القول، والتصديق إذعان لقبول أن الشيء على ما قيل فيه، التخييل يفعله القول لما هو عليه، والتصديق يفعله القول بما المقول فيه عليه، أي يلتفت فيه إلى جانب حال القول فيه".

وتجدر الإشارة هنا إلى قضية هامة جدا وهى أن ابن سينا علم الفرق بين الشعر العربي والشعر اليوناني وطبيعة كلا منهما، قال في طبيعة الشعر اليوناني : "الشعر اليوناني إنما كان يقصد فيه في أكثر الأمر محاكاة الأفعال و الأحوال لا غير" بينما العرب كانت "تقول الشعر لوجهين أحدهما ليؤثر في النفس أمرا من الأمور تعد به نحو فعل وانفعال و الثاني للعجب فقط فكانت تشبه كل شيء للتعجب بحسن التشبيه وأما اليونانيون فكانوا يقصدون أن يحثوا بالقول على فعل أو يردعوا بالقول عن فعل وتارة كانوا يفعلون ذلك على سبيل الخطابة وتارة على سبيل الشعر فلذلك كانت المحاكاة الشعرية عندهم مقصورة على الأقاويل و الأحوال والذوات من حيث لها تلك الأفاعيل و الأحوال".

لذلك لم يتورط في تطبيق فن المشعر على الشعر العربي، "إذ أكثر ما فيه اقتصاص أشعار

ورسوم كانت خاصة بهم ومتعارفة بينهم يغلبهم تعارفهم إياها عن شرحها وبسطها". يقول ابن سينا في نهاية تلخيصه وترجمته لكتاب فن الشعر: "هذا هو تلخيص القدر الذي وجد في هذه البلاد من كتاب الشعر للمعلم الأول وقد بقى منه شطر صالح ولا يبعد أن نجتهد نحن فنبتدع في علم الشعر المطلق وفي علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان كلاما شديد التحصيل و التفصيل".

ابن رشد أبو الوليد محمد: ولد (520هـ أو 526هـ)، وتوفّي بمراكش سنة (595هـ). يعدّ أشهر فيلسوف اقترن اسمه بأرسطو، ذلك أنه خصّص قسطا من حياته لدراسة وشرح فلسفته. ومن أعماله كتاب (تلخيص الخطابة)، وهو من (التلخيصات) أو (الشروح الوسطى) كما تسمّى في اللغات الأوربية الحديثة، وهو عرض وشرح بالترتيب لكتاب أرسطو (الخطابة)، يبتدئ الكلام بقول لأرسطو ثم يتبعه بشرح موسّع له، بحيث يستحيل الفصل بعده بين كلام كلّ منهما، وتلخيص لكتاب (فن الشعر).

يعد ابن رشد واحدا من الفلاسفة الذين ترجموا كتاب (فن الشعر)، ويعتبر أيضا الوحيد الذي اختلفت ترجمته عن باقي الترجمات والشروح، فقد لوحظ عليه سوء الفهم للمصطلحات الواردة في الكتاب، ورأى البعض أنه أخطأ في ترجمته، وذلك يرجع إلى أنه استبدل أمثلة أرسطو بأخرى عربية من شعر وآيات قرآنية. ربط ابن رشد المحاكاة بالتشبيه وقرنها بالتخييل، كما يتضح من قوله: "ويجب على الشاعر

أن يلزم في تخييلاته ومحاكاته الأشياء التي جرت العادة في استعمالها في التشبيه، وألا يتعدى ذلك طريقة الشعر".

وتكون من قبل ثلاثة أشياء الوزن، واللحن، والكلام ، والتخييل. قال ابن رشد: "المحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء: من قبل النغم المتفقة، ومن قبل الوزن، ومن قبل التشبيه نفسه وقد تجتمع هذه الثلاثة مع بعضها وهذا الذي يوجد في الموشحات والأزجال وقد توجد كل واحد منها مفردا مثل وجود النغم في المزامير، والوزن في الرقص، والمحاكاة في اللفظ".

كما أوضح العلاقة بين التخييلات والمعاني والأوزان بقوله: "من التخييلات والمعاني ما يناسب الأوزان الطويلة، ومنها ما يناسب القصيرة، وربما كان الوزن مناسبا للمعنى غير مناسب للتخييل، وربما كان الأمر بالعكس، وربما كان غير مناسب لكليهما".

لقد بحث ابن رشد على غرار الفلاسفة المسلمين حد الشعر والعلاقة بين الوزن والمعنى وبينه وبين المحاكاة، ومفهوم التخييل وعلاقته بالتشبيه، ومع ذلك فإنه أكثر اختلافا عن سابقيه من حيث فهمه وتعامله مع تراث أرسطو في الشعر.

خلاصة وتقييم:

أمدت الفلسفة النقاد المتأثرين بها بطرائق في التحليل والتعليل، وميزت لغتهم النقدية. وقد برز في النقد الفلسفي أعلاما ساهموا بالارتقاء من النقد من مجرد التأثرية المطلقة إلى التعليل المنطقي.

مراجع للتوسع:

1-أرسطوطاليس، في الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمه وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمان بدوي.

2-محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر، القاهرة، مصر، مارس 2005.

3-إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2011.

4-عباس ارحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1999.